الفصل الثامن

على باب المشفي ودانيال والمحترم دَاخلين؛ يُنادي أحد الجالسين على المحترم ويقف متجهاً ناحيته.. يبدو أنه الفتى اليافع الذي كان يتحاور مع المحترم منذ قليل.. أشار المحترم بيده أنه قد انتبه.. أقبل عليه الفتى اليافع وقال:

_ معذرة على الازعاج أيها المحترم..

سكت لعدة ثوانٍ.. ثم حاول أن يجد طريقة يبدأ بها الحوار.. ثم قال:

_ أحقاً ما قلته؟!

نظر المحترم إليه.. وبإشفاق ورغبة من المحترم في أن يجد هذا الفتى اليافع طريق ربه والإيمان به.. أجابه المحترم قائلاً:

_ نعم هو حق أيها الفتى النبيه.. ولكي ترى ما هو الإيمان؛ عليك أن تؤمن أولاً بأن هذا الرجل الذي أكلمه وواقف هو أمامي الآن _وضغط المحترم بيده على صدر الفتى اليافع_؛ ما هو إلا مخلوق قد خرج من قليل من الماء.. قيل من ماء المني عندما استمتع أبيه بأمه.

نظر الفتى اليافع عن جانبه وكأنه يفكر في شيء.. ثم نظر إلى المحترم وقال:

_ ولكن هناك من سيقول بأن هذا المني؛ ما هو إلا مصنع عظيم جداً.. مصنع عظيم يعمل بآليات تتسبب في تراكم الصفات الجسدية للأجداد ثم للأبوين.. والتي يتم توريثها للأجيال القادمة.

قال المحترم:

_ من قال لك ذلك؛ فقل له بأنه صادق فيما يقول ويدعي.. فالله هو من أكسب هذا الماء هذه الصفات، وهو الذي جعله مصنعاً عظيماً ومخزناً كبيراً للصفات ليخرج منه هذا الكائن الإعجوبة الكثير التعقيد.

قال الفتى اليافع:

_ سيقول لي بأنه ليست هناك قوة خارقة لتقحمها في أصل مجيئك.

قال المحترم:

_ من قال لك ذلك؛ فقل له: إنك قد أقحمت المجهول والتوهان واللاشيء في عملية الخلق.. أما نحن معشر المؤمنين؛ فإننا قد أقحمنا القصد والغاية والإرادة في عملية الخلق.. قصدُ الله وإرادته وغايته ثم قدرته في أن يأتي بك إلى هذا الوجود.

ثم قال:

_سيقول لي: وأين هو الله من كل تلك البراكين والزلازل والخسف؟

قال المحترم:

_قل له: إن الله قد خلقها ليخوف الناس بها ويجعلهم يطمعون في أن يغفر لهم ذنوبهم.. يُخوفهم إذا أردوا الإجرام أو الفساد في الأرض ويذكرهم بأن هناك من هو أقوى من كل تلك البراكين والزلازل؛ وهو الله الذي سيُحاسبهم.

قال الفتى اليافع:

سيقول لي: إن الله شرير.. وإلا لما خلق الشرّ!

قال المحترم:

قل له: إن الله خلق الطعام ولكنه لا يَطعم أو يأكل.. وخلق الماء ولا يشرب، وخلق النوم ولا ينام. وكذلك الأمر في الشرّ! فهو خلقه ولكنه ليس بشرير.. بل خلق الشر؛ لكي يبتلي الإنسان ويفتنه.. وهل هذا الإنسان يؤمن بالله رغم كل الابتلاءات أم ماذا يعمل هذا الإنسان؟

قال الفتى اليافع:

_ سيقول لي: إن فكرة خلق الله لكل شيء على حِدة وتصميمه الذكي؛ ليس لها وجود.. وإلا فما هو القول في التشابهات الكبيرة والصفات المشتركة في التركيب التشريحي والجيني والوراثي بين الكائنات الحية؟ أولا يؤدي ذلك إلى التصديق بأن هناك سالف مشترك قد انحدر منه على عكس ما يقوله المؤمنون؟

قال المحترم:

_من قال لك ذلك؛ فقل له: بل هذا يؤدي بي إلى زيادة الإيمان بالله؛ لأنه هو الذي عرفني منذ القدم بأنه هو من جعل التشابه بين الكائنات ليدل على أن الخالق واحد.. وأن القانون المستخدم في الخلق واحد.. وأن المصدر الذي خلقت منه جميع الكائنات التي على الأرض واحد.. وأن الله قادر على أن يخلق الأنواع والكائنات بنفس التركيب الجسدي والتشريحي والجيني؛ إلا أنهم يختلفون تماماً في أنفسهم.

قال الفتى اليافع:

_ سيقول لي: قل ما تشاء ! فما زالت الكلمة للعلماء.

قال المحترم:

_ قُل له: إن العلماء الذين تقصدهم؛ كل ما يمكنهم فعله هو أن يُحصلوا الأمور الحاصلة.. ويفسروا الواقع المحسوس بالواقع المحسوس.. وأما إذا بدأوا في إبداء آرائهم بدون دليل؛ فهم لا يفترقون عن أحد.. بل لربما كانوا أضل من كل أحد ووقعوا في ضروب من التخمين والظن الذي لا يقوم عليه دليل.

قال الفتى اليافع:

_ سيقول لي إذا أجبت عليه بذلك: وأين هو دليلك القاطع والحق الساطع من علمك.. من علمك الذي هو في الأصل مبني على كل ضروب الرجم بالغيب؟

قال المحترم:

_قل له: إن عند المؤمنين أقوى الأدلة وأجدها.. وأحرها في دحض الباطل وأقواها.. وأكثرها تثبيتاً للنفس وأزكاها.

قال الفتى اليافع وكله شوق في أن يعرفها:

_ وما هي تلك الأدلة التي هي عند المؤمنين أيها المحترم؟

قال المحترم وكله شعور بالراحة إذا ما جاء ذكر الإيمان:

_ هي أدلة الله الخالق المريد.. الخالق المريد الذي خلق كل شيء عن غاية وقصد في خلقه.. هي أدلة الله وأدلة المؤمنين به.. والتي يسمعها الإنسان فيتذكر نفسه ويشعر بها وينفض عنها غُبار الضياع والمجهول الذي يعيش فيه.. تلك الأدلة التي تجعله يرجع إلى البيئة الإنسانية.. البيئة البشرية وليست بيئة الشياطين التي كان يعيش فيها.. بيئة الشياطين حيث كل شيء كذب وبهتان؛ فعالمٌ تائه قد خُلق من لا شيء وبلا معنى؛ ماذا يُنتظر ويتوقع ممن يعيشون فيه غير حياة شيطانية لا تستقيم مع الفطرة الإنسانية؟

أخذ الفتى اليافع يستمع إلى كلمات المحترم ومأخوذ بها كثيراً.. ثم عمَّ الصمت لوهلة ومازالت الكلمات تتردد في أذنه.. والمحترم مازال ينظر إليه.. ثم قال له:

_ وإذا أردت أن تعرف كم أن هؤلاء الملحدين لا يقفون على شيء فيما يقولونه ويدعونه؛ عليك أن تسألهم سؤال.. سؤال واحد يُسكتهم ويفحمهم.

قال الفتى اليافع منتبهاً:

_وما هو هذا السؤال أيها المحترم؟

قال المحترم:

_ قل لهم: من هو الذي خلق الكون بكل ما فيه؟

ستجدهم يتخبطون في بعضهم تخبط الحمير الوحشية إذا ما رأت الأسود فأخذت تفرّ منها أشد الفرار في كل اتجاه ولا تهتدي إلى سبيل.

ردَّ الفتى اليافع بعدما انتبه من سرحانه في أمر الإيمان وأمر المشاعر التي تنتابه بسبب الإيمان:
_ لا أريد أن أهتم لأمر هؤلاء الملحدين مرة أخرى أيها المحترم.. فتفكيرهم يأخذوني إلى عالم من الضياع والضيق.

تبسم المحترم ثم قال له :
_ لأنهم بدلاً من أن يستخدموا العلم للوصول بالناس إلى تمام الهدى والنور؛ استخدموه للذهاب بهم مباشرة نحو الظلام.

قال الفتى اليافع:
_ ثم إن الناس أيها المحترم لا تحتاج إلى معلمين أو باحثين أو إلى مختبرات لتشعر بوجودها أو لتشعر بالإيمان وبأنها مخلوقة.. فإنك مثلاً إذا أردت أن تأكل؛ فإنك لست بحاجة لدراسة هرمونات الشهية وهرمونات الشبع والآليات الفسيولوجية لتبدأ الأكل أو التوقف.

وإذا أردت أن تنام؛ فأنت لست بحاجة إلى تعريف علمي للنوم أو دراسة المعايير الرئيسية التي تميز مراتب النوم لكي تنام.

وإذا أردت أن تعاشر زوجتك؛ فأنت تُقاتل من أجل ذلك ولا حاجة بك لدراسة مستقبلات الإثارة وما يحدث في الدماغ لتعرف أنك تريد المعاشرة والزواج.
وإذا ضحكت أو بكيت أو تألمت؛ فأنت لست في حاجة لأحد لكي يعرفك أن سبب الضحك والبكاء؛ هي أمور فسيولوجية عصبية تقوم بتنشيط القشرة الأمامية الوسطى للدماغ.

ولذلك أنت لست بحاجة للدراسة والبحث ثم التمحيص والفحص لكي تعرف كل ذلك.. ولذلك أيضاً أنت لست في حاجة لأي أحد لكي يخبرك بأنك مخلوق وأن هناك من خلقك! بل يكفى أنك موجود فقط لتعرف ذلك.

المحترم بادٍ على وجهه الرضا والانشراح لكلام الفتى اليافع:

_ أحسنت أيها الفتى اللامع.. أحسنت ماشاء الله!

وكل ما سمعته مني أيها الفتى اللامع؛ ما هو إلا السبيل المستقيم والحق المبين وأنت تحس بذلك في نفسك وتعرفه وكأني أكلمك على شيء موجود فيك.. وهذا هو أكبر دليل!

وإذا كنت تسأل: أوحق ما أقول؟ فإني مقسم لك بالله ربيّ وربك بأنه حق مثلما أنك مني وماء خرجت منه إنسان يستطيع أن ينطق ويتكلم.

سكت الفتى اليافع وأخذه التفكير بعيداً وقد تكشفت عنده أشياء.. أشياء من مثل أنه الله هو الذي خلقه.. وكم أن الله قريب منه.. وكم أن الله يحبه! أولا يكفيه دليلاً على حب الله له؛ أنه خلقه وسواه.. فجعله بشراً قد كرمه على باقي الأنواع والمخلوقات جميعاً.. وسخر كل ما في الكون لهذا الإنسان.. وذلك هو الله ربُّ العالمين.

المحترم ودااينال وإلياس ينظرون إلى الفتى اليافع وهو آخذ يفكر.. ثم بعد هنيهة أفاق الفتى فقال يشكر المحترم:

_ شكراً جزيلاً لك أيها المحترم.. أستئذنك!

بدأ الفتى اليافع يمشي فقال المحترم له:

_ إذا أردت أي شيء مني؛ فاسأل عني الطبيب يحيى.. الطبيب يحيى القادم علينا هناك.
وأشار ناحية الطبيب يحيى وهو قادم نحوهم

وماسكاً بإصباعيه على شفته وقد أخذه هذا الحديث بعيداً جداً قال:
_ شكراً جزيلاً أيها المحترم.. وأعتذر عن أية مُضايقات. _ثم استدار ذاهباً _

الطبيب يحيى مُقبلاً عليهم.. وبعد أن وصل قال المحترم مصافحاً:
_ كيف هي الأحوال أيها الطبيب.. ماذا تُخفي وراءك من أخبار؟

قال الطبيب يحيى:
_ أنا قادم من عند آدم.. _نظر المحترم أمامه على انقباض في نفسه يُخفِيه_ وهو في أسوء حالاته!

المحترم يحاول أن يُسيطر على نفَسه ومازال ينظر أمامه.. ثم قال:
_ استغفر الله.. _وأخذ يكررها حتى أبصر ما هو فاعل.. ثم قال وهو على وشك التحرك:
_ هيا.. فلنذهب إليه! دانيال.. إلياس.. أقبلا.. هيا !

❊ ❊ ❊